معتقَل:
نصوص من السجن العربيّ

. عبد الوهّاب عزّاوي .

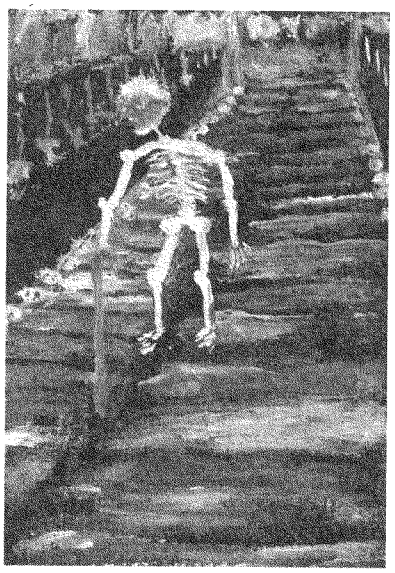

فاتح جاموس: سجين يمرّ بين صفّيْن من السجناء النائمين.

المعتقَل عالمٌ عصيٌّ على الاختراق من دون أن تُحَفَّ الروحُ بالسواد والغياب. والكلام فخٌّ؛ أجلْ، كيف أكتب؟! كيف أكون راويًا يجْمع آلافَ الأصوات ويَحْرص على ألاّ يذيبَها في صوته؟ وكيف لي أن أرسمَ مشهدًا عامًّا داخليّاً، وأن أحتفظَ بخصوصية كلّ روح، وهي خصوصيّةٌ تتفاوت إلى حدود التناقض أحيانًا عند الشخص نفسه، فكيف بعشرات الأرواح؟ ولعلّ هذا يفسّر أحيانًا التناقضاتِ في صوت المتكلّم في النصّ؛ وهو ما دفعني إلى اختيار عنوان ملتبس ـ «المعتقَل» ـ باعتباره اسمَ مكان، وباعتباره صفةً لشخصٍ أُجبر على دخول التجربة، وباعتباره مبتدأً لم يأتِ خبرُه.

أريد أن أكتبَ عن المعتقلين خارج قالبَي البطل والضحيّة؛ فهذان حقلان قاصران يُغلِّبان الجزءَ على الكلّ. أريد أن أبحث في تفاصيل الألم الصامت والمسعور، الملامحِ الجامدة والمتشنّجة، الحلمِ في الزنزانة المنفردة أو المهجع، في الذاكرة والزمن، في الأنثى الغائبة والحنين الذي يذيب الصدرَ ويخلق منه أرضًا حرّةً، في ألم الزوجات والأبناء، في خلق وسائلَ مدهشةٍ للتكيّف، في حبّ الحياة. أجل، أريد أن أكتبَ عن العالم الداخليّ للسجين وتفاصيله الصغيرة: فهذا هو الحقلُ الأهمّ الذي نَدَرَتْ مقاربتُه، وهو الثمنُ الهائلُ المهمَلُ الذي يُختزل بكلمة «تضحية» من دون أيّ جهدٍ في نبشه وتذوّقه وشمّ غابة الحسّ فيه.

معظمُ ما كُتب هنا نصوصٌ مفتوحةٌ، غيرُ مصنّفةٍ ضمن نوعٍ أدبيٍّ بعينه. وهي نصوصٌ توثيقيّة، لأحداثٍ حقيقيّةٍ رواها لي عددٌ من السجناء السياسيين في مراحلَ مختلفةٍ وظروفٍ مختلفة. والنصّ يحرص على ألاّ يكون وثيقةً تاريخية بل وثيقة حسّية. ولقد كان السؤالُ الأصعبُ بالنسبة إليّ هو ذلك الحاجز الواهي ما بين الشخصيّ، والنقلِ الأمينِ لما قيل من شهاداتٍ رَفَضَ بعضُ أصحابها أن تُذكر أسماؤهم: إنه الحاجزُ ما بين الشعريّ والسرد النثريّ، ما بين المجاز والمباشرة، ما بين الصنعة والصدق.

هناك حوادثُ أوصلتني إلى حدود البكاء، وذلك عندما تُختبر الحياةُ على التخوم التي تتخطّى القهرَ والغياب. سمعتُ عشرات القصص، ولم أكتبها جميعًا، ولم أسمحْ لصوتي الداخلي بأن يعلوَ على صوت الآخرين. وهذا النصّ الطويل هنا محاولةٌ لتشكيل فسيفساء من عشرات الأرواح، تشكيلٍ لملامح السواد ولذاكرةٍ تنزّ. إنه نصّ طويلٌ آمل أن ينتهي. في ما يلي بعضُ المقاطع منه.

ع.ع.

دمشق

صــلاة

أسيرُ كقافلةٍ من حنينٍ
على دربيَ اللَّوْلبيِّ.
أَدُور كصوتٍ يودُّ الوصولَ
إلى حافةِ المستحيل.
أفتّش عن غيمةٍ في الطريقِ القصيرِ
الذي لا يُرى،
لأَقْشرَ عنّي السَّوادَ.
وألبسُ ماءً طريًّا
أسدُّ المسامَ لأحفظَ روحي.
وجهي نديمي،
وظلّي يذوب بماءِ الجدارِ.
أدقُّ السماءَ بكعبي،
وأهفو سماءً على نفسيَ الواهنةْ.
دمي مؤْنِسي وسطَ هذا الجنون،
وقلبي جارٌ قريبٌ،
وكفّي وشاحٌ لأنثى
تئنّ بكفّيْن شاحبتيْن
تصلّي كسروٍ
بلَيْلِ العواصفِ.
كفّي وشاحٌ لأمي
تموتُ
وتحيا..
لكي لا تراني بأرض السواد.

لــوحــة

أقولُ لجاري
(أعْلم أنّه لا يَسْمعني):
«ينقصني قليلٌ من الأحمر لأنهيَ لوحتي.»
يردّ
(رغم أنه يعْلم أني لا أسمعه):
«دمي يميل للسواد.»

هنا، وسطَ السواد،
أبدأ تمارينَ الحياة (أو ترويض القبر).
الصبرُ درعي،
والعينُ رمحي.
لكنْ..
المرارةُ في فمي تزداد ملوحةً.
«إنه دمٌ طازجٌ
عمْ مساءً.. يا دمي!»

كــبريــاء

الكبرياءُ.. هذه اللعنة الغامقة..
جلدٌ يابسٌ فوق اللحم
غصّةٌ ورديةٌ بعينين بريّتيْن.. روحي
وهي تعلق في الشراقة*
إنها أمي وهي تسير على الشرفة المشمسة.

ينهكني الحنينُ، والوقت عدائيٌّ.
أتفرّسُ في كفّيَ، أعصرُ هواءها
والمشهدُ يغيم.
..
متى؟
متى، يا مَنْ يسمّونك ربّاً، متى؟!
واهنٌ كأرنب، وروحي معلّقة على الجدار، ولا شيء يؤلمني غير النسيان.

يا الله.. أيَّتُها الملائكة.. يا شياطين.. أصدقائي!
أيتها الوحدةُ المفتوحةُ كفمٍ ميت!
الكأس تفتتحُ بابَ الغياب.
الضوء مشبعٌ بغبار الصور.
أغيب..
أصحو
كأني في غيرِ قبري.
أزرع ريحانًا
وأُرسلُ قلبي للشوارع.
أشمّ الهواءَ الثقيلَ وأغنّي.
أنظرُ للنساء
لحمرةِ الخدودِ ولونِ الشفاه
ولعابِ الأمنيات،
للشَّعْرِ الشرسِ تحت الحجاب،
وللحَلَقِ يرنُّ
يقود قطيعَ الغيم..

أُصْغي لوقع الأحذية في الممرّات،
وهمسِ الناس في المقاهي.

---

* ـ الشراقة: فتحة صغيرة في سقف المهجع يراقبُ منها السجّانُ المعتقلين.

أسير لأمسحَ قلبي بجذوع الأشجار
الوسخة،
وأُلقي نفسي على الرصيف
ككتبِ الحبّ والفلسفة،
وأنظرُ من الأسفل..
ستقترب السماء
وتضمّدُ كبريائي
عَلِّيَ أغفو
دون ألم.

شمس في العام

جاء الأمر:
استعدّوا للفسحة!
برقابٍ محنيّةٍ، وقلوبٍ طافحةٍ
كدلاءٍ، مشيْنا.
باحةُ المعتقل، لم أعرفْ حدودَها؛
فرفعُ الرأسِ ممنوع.
بحرةٌ في المنتصف طحالبُها صلبةُ
الروح
«نَظِّفوها يا (...)»!
تمرّغْنا في طحلِ البحرة ببقايا ثيابٍ
وأرواحٍ.
وقتَها،
تمنّيتُ أن أعود لجحْري..
لأموتَ بسلام.

إمساك

الجسدُ حيوانٌ أليف.
المستقيمُ[1] صديقٌ حميم
خبيرٌ بأوقات التبرّز.
السجّانُ يَرْقبني.
انتهت الدقيقة!
فخذي تتشنّج،
والعرقُ يسير ببطء.
الأمعاءُ حائرةٌ كقطّ،
والماءُ الباردُ ينغرس في اللحم.

السجّان يقترب،
يَصْرخ.
البصاقُ يتطاير من فمه،
وشفتاه تتلاطمان.
أسنانُه الصفرُ تتزاحم،
وعصاه تلوِّح،
تَهْبط،
فيئنُّ الجدار،
ويسيل خيطٌ رفيعٌ بين عينيّ.
لماذا؟! لماذا خذلتني
أيها المستقيمُ الحكيم؟

الجوقة

خرج الرفاقُ
وبقيتُ
في قفرٍ شاسع.
ملكٌ أنا!
ورثتُ الكثيرَ من الذكريات
و.. الجدران المذكّرة والمؤنثة.[2]
الظلال والأمنيات
والوحدة بعينين محتقنتين.
ورثتُ ثيابًا بأحلامٍ عالقة؛
ثلاثين زجاجةً من النبيذ
وكمنجاتٍ وأعواداً.[3]
..
فرقةٌ ناقصة
والكورس أرواحٌ عالقةٌ في المكان.

في الليل

في الليل
تلتصق الثيابُ بالجسد
والظلمةُ تعوي.
أمدُّ يدي؛
أصابعي ترتجف،
وحلقي ناشف.
أرى..
ألمس وجهَكِ فوق الوسادة.

في الليل
تنتشر الظلمة

---

١ ـ المستقيم هو القطعة الأخيرة من الأمعاء، ينتهي بالشرج. وقد روى لي أحدُ السجناء أنّ أوقات الدخول إلى المرحاض كانت مرتيْن في اليوم، على ألاّ تتجاوز فترةُ استعماله الدقيقةَ الواحدةَ في كلّ مرة، وإلاّ حَصَلَ العقاب.

٢ ـ ذكر لي عدد من السجناء أنهم يُطْلقون أسماء على الجدران في المنفردة تحديدًا، وينامون قرب أحدها، ويخشَوْن آخر.

٣ ـ صُنعتْ ثلاثُ كمنجات في المعتقل، وتم تهريبُ واحدةٍ منها خارجه. وصُنع العديدُ من الأعواد، بعضُها من أعواد الكبريت، وصودر معظمُها وبِيعَ من قبل السجّانين أو أُتلف. وقد بقيتْ بعضُ هذه الآلات في المعتقل لدى السجين الأخير من أحد الأحزاب.

كرداء حربٍ مهترئ،
والقلبُ يجري
كفأرٍ حائرٍ
بين ممرّاتِ الضلوع،
والأرقُ ينمو تحت الصَّدْغ
كعشبٍ في شقوق جدار.

في الليل..
تتسرّب رائحةُ الخوف
وجسدي عالقٌ في مطّاطِ الذاكرة.
المشهد يتقشّر كالكلسِ عن السماء،
والليلُ أرجوحةٌ لا تتوقّف
تَسْحبني.
وقطيعُ الهواجس
يَعْبر حقلَ الروح ..
فيما الفراغُ ينسكبُ على الجسد
صمتًا غائرًا
يَثْقبه أنينٌ مبحوحٌ.

..
ـ أيتها العاهرات
أريننني ضروعَكُنَّ السُّود!
هل من نهدٍ زائدٍ لأسند رأسي؟

..
ـ أيها المتفرّجون..
أما من مجذوبٍ فيكم
يمنحني ربّاً
لآوي إليه؟

أنشاي

مُدّي يدكِ هنا..
فوق عنقي
وانثري ضَوءكِ في مسامي العطشة.
افتحي عروةَ الثوب
وتنفَّسي ببطءٍ لأُسندَ قلبي؛
وانظري عميقًا في عينيّ.
عيناكِ ستدمعان،
وشفتُكِ السفلى ترتعش.
لن أقولَ شيئًا، أنا الجثّة الحيّة.
عيناي دُوريّان ميّتان،
وذراعي جذعٌ طافٍ،
قلبي ريحٌ في زجاجة.
سأمسحُ خدَّكِ بيدي اليمنى
وألثمُ دمعكِ
وأدعوك للنسيان.

..
يا امرأتي..
دثّري القلبَ
هنا في السوادِ الوعر،
والثمي ملامحي الغائمة؛
أكملي وجهي كرسومِ الأطفال،
ثمّ ادخلي فيَّ على مهلٍ
كي أقومَ من الممات.

عمر الإنسان

في المنفردة،
أقود قطيعَ الوقت،
آخذ دورَ الراعي وكلبِ الحراسة
واللصِّ الصديق،
أُلهي الزمنَ بأحجية:
«كم يبلغ عمرُ الإنسانِ بالثواني..؟»
أبدأ:
في الساعة ثلاثةُ آلافٍ وستمئة ثانية
في اليوم..
في الشهر..
سأطرحُ وأضيفُ لأعدّلَ النتيجةَ
بحيادِ الموتى،
ثم أعطي ساعاتِ الفرح حيّزًا أكبر
والجنون..
والألم..
حقولٌ وعرةٌ أسرحُ فيها.
أخطأتُ..
«متعةُ الخطإِ تمنح السؤالَ نَفَسًا جديدًا»
أبدأُ من جديد
تُقاطعني ما تسمّى بـ«وجبة الطعام.»
أبدأُ من جديد
وحولي قطيعُ الوقت
يرعى حشيشَ الروحِ الناشفة.

...
بعد زمنٍ، في المنفردة:
إنها ثلاثةُ مليارات ثانية..
ثلاثةُ مليارات....ثانية
و..
ثانية.

دمشق